قـوة المـؤمـن

الله وحده هو القويُّ ، ولا قويَّ سواه ، وكلُّ قوّةٍ في الأرضِ في الذواتِ والأشياءِ مُستمَدَّةٌ مِن قوةِ الله ، تأييداً ، أو استدراجاً ، أو تسخيراً ، لحكمة بالغة عرفها من عرفها ، وجهلها من جهلها .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [البقرة : ١٦٥] .

« المُؤْمِنُ القَوِيُّ أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ المُؤْمِنِ الضَّعِيفِ »[١] .

كن عضواً في جمعيةِ الأقوياءِ ، ولا تكن رأساً في قطيعِ النعاجِ .

قد تبدو ضعيفاً ؛ لأنك قرّرتَ أن تكونَ ضعيفاً ، فعشْ كما تريد ، لكنْ لا بدّ أن تعلمَ أنّ بإمكانك أن تصبحَ قوياً ، وأن تتعافى من شعورك بالضعفِ .

إنّ الأقوياءَ بالحقِّ هم السعداءُ ، وإنّ الضعفاءَ بالباطلِ هم التعساءُ!

واعلم يقيناً أنّ الشيءَ الذي تتوهّم أنك لا تستطيعه هو الشيءُ الذي لا تريدُ أن تكونَه .

---

(١) مسلم (٢٦٦٤) .

القوّةُ مطلبٌ أساسيٌّ ، وإلاّ فلا قيمةَ للحياةِ من دونِ قوة .

إن القوّةَ مصدرٌ للثقةِ ، والثقةُ لا توجد إلا في قلوبِ الأقوياءِ .

وإذا أردتَ القوّةَ الحقيقيّةَ فابحث عن قوّةٍ لا تحتاج إلى غيرِها كي تتقوّى بها ، إنها قوة الله عز وجل .

وهذا دليلٌ على أنّ الجبنَ والخورَ ، والاستكانةَ والاستسلامَ ، والانهزاميةَ والذلَّ ، وجميعَ المفرداتِ في قاموسِ الضعفِ مرفوضةٌ في حياةِ الأقوياءِ ؛ فأنت كائنٌ لم تُخلقْ لتكونَ مسلوبَ الإرادةِ ، باردَ الهمّةِ .

تأمّلْ دعاءَ رسولِ الله ﷺ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالْكَسَلِ ، وَالْجُبْنَ والْبُخْلِ ، وَغَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ »[1] .

إن عليك ألاّ تتردّدَ في الانتسابِ « لعضوية نادي الأقوياء » ، فلديك عملاقٌ ينامُ بين جنبيك ؛ فابحث عنه حتّى لا تموتَ ، وأنت تعيشُ بين الأحياءِ !

ليس مَن ماتَ فاستراحَ بميتٍ إنما الميتُ ميتُ الأحياءِ

تأمّلْ في البعوضةِ : إنها لا تبدو بالنسبةِ إليك شيئاً مذكوراً ؛ لكنّها أقوى منك ، حينما تصرُّ من دونِ كَلَلٍ أو مللٍ ، في البحثِ عن منفذٍ في جلدك .

* * *

(١) أبو داود (١٥٥٥) ، وله أصل في الصحيحين .

لكنّ السؤالَ المهمَّ في الموضوعِ : كيف نبحثُ عن القوةِ ، ونحن ضعفاءُ ؟

إنّ الحديثَ عن القوةِ النابعةِ من الضعفِ ليس دعوةً إلى الرضا بالضعفِ ، أو السكوتِ عليه ، بل هو دعوةٌ لاستشعارِ القوةِ حتّى في حالةِ الضّعفِ ، إذن يجبُ أن نبحثَ في كلّ مَظنّةِ ضعفٍ عن سببِ قوةٍ كامنةٍ فيه ، ولو أخلصَ المسلمون في طلبِ ذلك لوجدوه ، ولصارَ الضعفُ قوّةً ، لأنّ الضعفَ ينطوي على قوّةٍ مستورةٍ يؤيِّدها اللهُ في حفظِه ورعايتِه ، فإذَا قوّةُ الضعفِ تهدُّ الجبالَ ، وتدكُّ الحصونَ ، كما ترون وتسمعون .

أنت قويٌّ ، وهذا سرُّ ضعفِك ، وأنا ضعيفٌ ، وهذا سرُّ قوّتي !

لذلك نستطيعُ أنْ نقابلَ القنبلةَ الذريةَ بقنبلةِ الذُرّيةِ ، أي : بتربيةِ جيلٍ واعٍ ملتزمٍ ينهضُ بأُمّته .

إنّ أشكالَ القوّةِ متنوعةٌ ، وإنَّ أبعادَها مختلفةٌ ، ومِن الصعبِ الحديثُ عنها جميعاً ، ولكنْ نشيرُ إلى أَشهرِ هذه القُوى تفصيّلا حينًا وإجمالاً حينًا آخر .

١ ـ التوحيد قوة

التوحيدُ هو في الواقعِ تحريرٌ للإنسانِ ، مِن كلِّ عبوديةٍ ، إلا لربّه الواحدِ الديّانِ ، الذي خَلَقه فسوّاه وكرّمه ، التوحيدُ تحريرٌ لعقلِه من

الخرافاتِ والأوهامِ ، التوحيدُ تحريرٌ لضميرِه من الخضوعِ والذلِّ والاستسلامِ ، التوحيدُ تحريرٌ لحياتِه مِن تسلُّطِ الأربابِ والمتألِّهين ، التوحيدُ يُعينُ على تكوينِ الشخصيةِ المُتَّزِنةِ التي تَوَضَّحَتْ في الحياةِ وِجْهتُها ، وتوحَّدَتْ غايتُها ، وتحدَّدَ طريقُها ، فليس لها إلا إلهٌ واحدٌ ، تتّجهُ إليه في الخلوةِ والجلوةِ ، وتدعوه في السّرّاءِ والضراءِ ، وتعملُ على ما يُرضيه في الصغيرةِ والكبيرةِ ، ففي القرآن :

﴿ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

[يوسف : ٣٩] .

التوحيد يملأُ نفسَ صاحبِه أمْناً وطمأنينةً ، فلا تستبدُّ بها المخاوفُ التي تتسَلّطُ على أهلِ الشركِ ، فقد سدَّ الموحِّدُ منافذَ الخوفِ التي يفتحُها الناسَ على أنفسِهم ، الخوفَ على الرزقِ ، والخوفَ على الأجلِ ، والخوفَ على النفسِ ، والخوفَ على الأهلِ والأولادِ ، والخوفَ من الإنسِ ، والخوفَ من الجنِّ ، والخوفَ من الموتِ ، والخوفَ ممَّا بعْدَ الموتِ .

أمّا المؤمنُ الصادقُ ، الموحِّدُ فلا يخافُ إلا اللهَ ، ولا يخشى إلاّ اللهَ ، ولهذا تراه آمناً إذا خاف الناسُ ، مطمئنًّا إذا قلقَ الناسُ ، هادئاً إذا اضطربَ الناسُ .

وقال تعالى :

﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٣] .

التوحيدُ مصدرٌ لقوةِ النفسِ ، إذ يمنحُ التوحيدُ صاحبَه قوّةً نفسيةً

هائلةً ، حيث تمتلىءُ نفسُه من الرجاءِ بالله تعالى ، والثقةِ به ، والتوكُّلِ عليه ، والرضا بقضائِه ، والصبرِ على بلائِه ، والاستغناءِ به عن خَلْقِه ، فهو راسخٌ كالجبلِ ، لا تُزَحْزِحُه الحوادثُ ، ولا تُزَعْزِعُه الكوارثُ .

ولمّا وَلِيَ الحجَّاجُ بنُ يوسفَ الثقفيُّ العراقَ ، وطغى في ولايتِه وتجبَّرَ ، كانَ الحسنُ البصريُّ أحدَ الرجالِ القلائلِ الذين بيَّنوا للناس الحقَّ والحقيقةَ ، وصدَعوا بكلمةِ الحقِّ دونَ خوفٍ أو وَجَلٍ ، فعَلِمَ الحجَّاجُ بذلك ، فماذا فعل ؟ دخلَ الحجَّاجُ إلى مجلسِه ، وهو يتميَّز من الغيظِ ، وقال لجلاَّسِه : تبًّا لَكُم ، سُحقًا ، يقومُ عبدٌ مِن عبيدِ أهلِ البصرةِ ، وَيقولُ ما شاءَ أنْ يقولَ ، ثمّ لا يَجدُ فيكم مَن يردُّه ، أو ينكرُ عليه ، واللهِ لأسقينَّكم مِن دمِه يا معشرَ الجبناءِ ، ثمّ أَمرَ بالسيفِ والنطعِ ـ إذا كان يُريد قطعَ رأسِ إنسانٍ بمكانٍ فيه أثاثٌ فاخرٌ حتى لا يلوِّثَ الدمُ الأثاثَ يأتون بالنطعِ ، والنطعُ قطعةُ قماشٍ كبيرةٍ ، أو قطعةُ جِلدٍ ، ثم أمرَ بالسيفِ والنطعِ فأُحضِرَ ، ودعا بالجلاّدِ فمَثُل واقفًا بين يديه ، ثم وجَّه إلى الحسنِ بعضَ جنْدِه ، وأمرهم أنْ يأتوا به ، ويقطعوا رأسَه ، وانتهى الأمرُ ، وما هو إلا قليلٌ حتى جاء الحسنُ ، فشخصتْ نحوه الأبصارُ ، ووجفتْ عليه القلوبُ ، فلما رأى الحسنُ السيفَ والنطعَ والجلادَ حرَّك شفتيه ، ثم أقبلَ على الحَجَّاجِ ، وعليه جلالُ المؤمنِ ، وعزّةُ المسلمِ ، ووقارُ الداعيةِ إلى اللهِ ، فلمّا رآه الحجّاجُ على حالِه هذه هابَه أشدَّ الهيبةِ ، وقال له : ها هنا يا أبا سعيدٍ ، تعالَ اجلسْ هنا ، فما زالَ يوسِّع له ويقولُ : ها هنا ، والناسُ لا يصدَّقون ما يرون ، طبعا طُلبَ ليُقتَلَ ، والنطعُ جاهزٌ ، والسيَّافُ واقفٌ ، وكلُّ شيءٍ جاهزٌ لقطعِ رأسِه ، فكيف يستقبلُه

الحجَّاجُ ، ويقولُ له : تعال إلى هنا يا أبا سعيدٍ ، حتى أجْلِسَه على فراشِه ، ووضَعَه جنبه ، ولما أخذ الحسنُ مجلسَه التفتَ إليه الحجَّاجُ ، وجعل يسألُه عن بعضِ أمورِ الدِّينِ ، والحسنُ يجيبُه عن كلِّ مسألةٍ بجنانٍ ثابتٍ ، وبيانٍ ساحرٍ ، وعلمٍ واسعٍ ، فقال له الحجّاجُ : أنت سيدُ العلماءِ يا أبا سعيدٍ ، ثم دعا بغاليةٍ ـ وهي نوع من أنواع الطيب ـ وطيَّب له بها لِحْيته ، وودَّعه ، ولما خرج الحسنُ من عندِه تبِعَه حاجبُ الحجّاجِ ، وقال له : يا أبا سعيدٍ ، لقد دعاك الحجاجُ لغير ما فُعِل بك ، دعاك ليقتلك ، والذي حدثَ أنه أكرمك ، وإني رأيتُك عندما أقبلتَ ، ورأيتَ السيفَ والنطعَ قد حرَّكتَ شفتيك ، فماذا قلتَ ؟ فقال الحسن : لقد قلتُ : يا وَلِيَّ نعمتي ، وملاذي عند كُربتِي ، يا مُؤنِسي في وحشتِي . . . اجعل نِقْمَته بَرْدًا وسلامًا عليَّ ، كما جعلتَ النارَ بردًا وسلامًا على إبراهيمَ .

وقد استنصحَه والي البصرةِ مرّةً ، وقد جاءه من الخليفةِ توجيهٌ ؛ إنْ نفَّذه أغضبَ اللهَ ، وإنْ لم ينفِّذْه أغضبَ الخليفةَ ، وعزله من الولايةَ ، قال له : اعلمْ أنّ اللهَ يمنعك مِن يزيد ، ولكنّ يزيدَ لا يمنعك من اللهِ .

٢ ـ المعرفةُ والعلم قوّةٌ

أما المعرفةُ والعلمُ فهما قوّةٌ هائلةٌ ؛ فالمعرفةُ تعطيك طاقةً لا تتقيَّدُ بحدودِ الزمانِ أو المكانِ ، وتُكسِبُ صاحبَها علوًّا ومنزلةً ، وتمهّدُ الطريقَ أمامه للرفعةِ في الدنيا والآخرةِ .

﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

[المجادلة : ١١] .

دخل سليمانُ بنُ عبد الملكِ الحَرمَ ، ومعه الوزراءُ ، والأمراءُ ، والحاشيةُ ، وقادةُ الجيشِ ، وكان حاسِرَ الرأسِ ، حافِيَ القدَمَيْن ، ليس عليه إلا إزارُهُ ، ورداءٌ ، شأنُهُ كَشَأنِ أيّ حاجٍّ من المسلمين ، ومن خلْفِهِ وَلَداهُ ، وهما غلامان كَطَلْعَةِ البدْر بهاءً ، وكأكْمامِ الورْد نظارةً وطيبًا ، وما إن انتهى خليفةُ المسلمين ، وأعظمُ مُلوكِ الأرضِ من الطَّوافِ حولَ البيتِ العتيقِ ، حتى مالَ على رجلٍ من خاصَّتِهِ ، وقال : مَن عالمُ مَكّةَ ؟ قالوا : عطاءُ بن أبي رباحٍ ، قال : أَروني عطاءً هذا ، فأشرفَ عليه ، فوجده شَيْخاً حبَشِيّاً ، أسْوَدَ البشَرَة ، مُفَلْفَلَ الشَّعْر ، أفْطَسَ الأنفِ ، إذا جلسَ بدَا كالغُرابِ الأسْوَدِ ، كأنّ رأسَه زبيبةٌ ، مشلولاً نصفُه ، لا يملك من الدنيا درهمًا ولا دينارًا ، فقال سليمانُ : أأنت عطاءُ بنُ أبي رباحٍ الذي طوّقَ ذكْرُك الدنيا ؟ قال : يقولون ذلك ، قال : بماذا حصلتَ على هذا الشرف ؟ قال : باستغنائي عن دنيا الناسِ ، وحاجتِهم إلى عِلمي الذي انقطعتُ له ثلاثين عاماً ، قال سليمانُ : يا أيها الحُجَّاجُ لا يفتِي في المناسكِ إلا عطاءٌ .

وحدثَ بعد اللقاءِ الأولِ أنِ اختلفَ سليمانُ وأبناؤُه في مسألةٍ من مسائلِ الحجِّ ، فقال : خذوني إلى عطاءِ بن أبي رباحٍ ، فأخذوه إلى عطاءٍ ، وهو في الحَرَمِ ، والناسُ متحلِّقون حوله ، فأراد أن يجتازَ الصفوفَ ، ويتقدَّم إليه ، وهو الخليفةُ ، فقال عطاء : يا أميرَ المؤمنين ، خذ مكانَك ، ولا تتقدَّمِ الناسَ ؛ فإنّ الناسَ سبقوك إلى هذا المكانِ ، فلمّا

أتى دورُه سأله المسألةَ فأجابه ، فقال سليمانُ لأبنائه : يا أبنائي ، عليكم بتقوى اللهِ ، والتفقُّهِ في الدِّينِ ، فو اللهِ ما ذللتُ في حياتي إلا لهذا العبدِ ، لأنّ اللهَ يرفع مَن يشاء بطاعتِه ، وإنْ كان عبدًا حبشيًّا ، لا مالَ ولا نسبَ ، ويذلّ مَن يشاء بمعصيتِه ، وإن كان ذا نسبٍ وشرفٍ. . . ثم قال سيمانُ لأحدِ وَلديه : هذا الذي رأيْتَهُ يا بنيّ ، ورأيتَ ذُلَّنا بين يدَيْه هو وارث عبدِ الله بن عبَّاس ، الصحابيِّ الجليلِ الذي أوتِيَ فهْمًا في القرآنِ الكريمِ ، وكان مَوْسوعةً في كلّ العُلومِ ، ثمَّ أرْدَفَ يقول : يا بنيّ ، تَعَلّم العِلْم ، فَبالعِلْم يشْرُفُ الوضيعُ ، وينْبُهُ الخامِلُ ، ويَعْلو الأرِقَّاءُ إلى مراتبِ المُلوكِ .

ولذلك قِيل : رُتْبةُ العِلْمِ أعلى الرُّتَبِ ، تعلَّموا العِلمَ ، فإنْ كنتُم سادةً فُقْتُم ، وإن كنتم وسَطًا سُدْتُم ، وإن كنتم سُوقةً عِشْتُم .

وفي هذا العصرِ يأتمرُ صُنَّاعُ القرارِ في أقوى دُولِ العالَمِ بأُولِي الخبرةِ من العلماءِ ، فهم الذين يحكمون العالَمَ حقيقةً .

٣ ـ العبادةُ الخالصةُ قوّةٌ

كان رجلٌ من أصحابِ النبي ﷺ يقالُ له جُلَيْبيب ، رجلٌ فقيرٌ معدومٌ ، عليه أسمالٌ[1] باليةٌ ، جائعُ البطنِ ، حافي القدمِ ، مغمورُ النسبِ ، لا جاهَ ولا مالَ ولا عشيرةَ ، ليس له بيتٌ يأوي إليه ، ولا أثاثَ

(١) قال في لسان العرب (سمل) : « سمَل الثوبُ يسمُل سمولاً أخْلَقَ. . . السَّمَل الخلَقُ مِن الثياب » .

ولا متاعَ ، يشرب من الحياضِ العامّةِ بِكَفَّيْهِ مع الوارِدِين ، وينامُ في المسجدِ ، وسادتُه ذراعُه ، وفراشُه البطحاءُ ، وكان في وجهِه دمامةٌ ، لكنّه صاحبُ ذِكْرٍ لربّه ، وتلاوةٍ لكتابِ مَولاه ، لا يغيبُ عن الصفِّ الأولِ في الصلواتِ والغزواتِ ، ويُكثِرُ الجلوسَ عند النبي ﷺ ، فقال له النبيُّ ﷺ ذاتَ يومٍ : يا جُليبيبُ ألاَ تتزوّجُ ؟ فقال : يا رسولَ الله ، ومن يزوِّجُني ؟! فقال رسول الله ﷺ : أنا أزوِّجُك يا جُليبيبُ ، فالتفتَ جُليبيبُ إلى الرسولِ ﷺ فقال : إذاً تجدُني كاسداً يا رسول الله . . فقال الرسولُ ﷺ : غيرَ أنك عند اللهِ لست بكاسدٍ ، ثم لم يَزَلْ النبيُّ ﷺ يتحيَّنُ الفرصَ حتى يزوِّجَ جُليبيبًا . . . فجاء في يومٍ من الأيامِ رجلٌ مِن الأنصارِ قد توفِّيَ زوجُ ابنتِه ، فجاء إلى النبيِّ ﷺ يعرِضُها عليه ليتزوجَّها النبيُّ ﷺ ، فقال له النبيُّ ﷺ : نَعَم ، ولكن لا أتزوَّجها أنا!! فردَّ عليه الأبُ : لمَن يا رسولَ الله!! فقالَ ﷺ : أزوِّجها جُليبيبًا . . فقال ذلك الرجلُ : يا رسول الله ، تزوِّجها لجُليبيبٍ ، يا رسولَ اللهِ ، انتظرْ حتى أستأمِرَ أمَّها!! ثم مضى إلى أمِّها ، وقال لها : إنّ رسولَ الله ﷺ يخطبُ إليك ابنتَك ، قالت : نعَم ونعمين برسول الله ﷺ ، ومَن يرُدُّ النبيَّ ﷺ ؟! فقال لها : إنه ليس يريدُها لنفسِه!! قالت : لمَن ؟ قال : يريدُها لجُليبيبٍ!! قالت : لجُليبيبٍ!! لا لعَمْرُ الله ، لا أزوِّج جُليبيباً ، وقد منعناها فلاناً وفلاناً . . . فاغتمَّ أبوها لذلك ، ثم قام ليأتي النبيَّ ﷺ ، فصاحت الفتاةُ من خِدْرِها ، وقالت لأبويها : مَن خطبني إليكما ؟ قال الأبُ : خطبكِ رسولُ اللهِ ﷺ . . قالت : أفَتَرُدّانِ على رسولِ الله ﷺ أَمْرَه . . . ادفعاني إلى رسولِ الله ، فإنه لن يضيِّعَني! قال أبوها : نَعم . . ثم ذهبَ إلى

النبيِّ ﷺ ، وقال : يا رسولَ الله شأنَك بها . . . فدعا النبيُّ ﷺ جُليبيبا ، ثم زوّجه إياها ، ورفع النبيُّ ﷺ كَفَّيه الشريفتين ، وقال : اللهمّ صُبَّ عليهما الخيرَ صبًّا ، ولا تجعل عيشَهما كدًّا كدًّا!! ثم لم يمضِ على زواجِهما أيامٌ حتى خرج النبيُّ ﷺ مع أصحابِه في غزوةٍ ، وخرج معه جُليبيبٌ ، فلما انتهى القتالُ اجتمع الناسُ ، وبدأوا يتفقّدون بعضَهم بعضاً ، فسألهم النبيُّ ﷺ ، وقال : هل تفقِدون مِن أَحدٍ ؟ قالوا : نَعم يا رسول الله ، نفقد فلاناً وفلاناً ، وينسون جليبيباً في غمرةِ الحديثِ ؛ لأنهَ ليس لامعاً ولا مشهوراً ، فقال ﷺ : ولكنني أفقِد جُليبيبا . . فقوموا نلتمس خبره ، ثم قاموا ، وبحثوا عنه في ساحة القتال ، وطلبوه مع القتلى ، ثم مشوا فوجدوه في مكان قريب ، وقد استشهد . . فوقف النبيُّ ﷺ على جسدِه المقطَّع ، ثم قال : أنتَ مني ، وأنا منك ، أنتَ منّي ، وأنا منك . . ثم تربَّعَ النبيُّ ﷺ جالساً بجانبِ هذا الجسدِ ، ثمّ حمَل هذا الجسدَ ، ووضعه على ساعِدَيه ﷺ ، وأمرهم أن يحفروا له قبراً . . قال أنس : فمكثنا ـ والله ـ نحفر القبرَ ، وجُليبيبٌ ما له فراشٌ غيرُ ساعدِ النبيِّ ﷺ . . قال أنسٌ : فعُدْنا إلى المدينةِ ، وما كادت تنتهي عدَّتُها حتى تسابقَ إليها الرجالُ يخطبونها . .

﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

إنّ الفقرَ والخمولَ ما كان في يومٍ من الأيامِ عائقاً في طريقِ التفوُّقِ والوصولِ .

إنّ قيمتَك في معانيك الجليلةِ ، وصفاتِك النبيلةِ ، لا في دِرهمِك ودينارِك ، ولا في بيتِك ومتاعِك .

٤ ـ الدعاءُ قوّةٌ

هل مِن وضعٍ أضعفُ مِن أن يجدَ الإنسانُ نفسَه في فمِ حوتٍ أزرقَ يزيدُ وزنُه على مئةٍ وخمسين طنًّا ؟! منها خمسون طنًّا لحماً ، وخمسون طنًّا دهناً ، وخمسون طنًّا عظماً ، وفيه تسعون برميلاً من زيتِ السمكِ ، ووجبتُه الصغيرةُ بين الوجبتين أربعةُ أطنانٍ مِن السمكِ ، ورضعةُ وَلِيدِه ثلاثمئة كيلو من الحليبِ ، ويستطيعُ الإنسانُ أنْ يقفَ على قَدَميه في فمِه .

لو وجدَ الإنسانُ نفسَه في فمِ الحوتِ كم نسبةُ احتمالِ النجاةِ ، هي معدومة يقيناً ، لكن سيدنا يونسَ عليه السلام ، لحكمةٍ تعليميةٍ أرادها اللهُ جل جلاله سمحَ لحوتٍ عظيمٍ أن يلتقمَ نبيَّه الكريمَ ، قال تعالى :

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الصافات : ١٣٩ـ١٤٤] .

﴿ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

[الأنبياء : ٨٧ـ٨٨] .

وقد يقول قائلٌ : إن هذا استثناء لنبي كريم ، ونقول له : هي قصّةٌ وقعت ، لكنّ الله جل جلاله حينما قال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء : ٨٨] .

جعلها قانوناً ينتفعُ به كلُّ المؤمنين الصادقين .

فالدعاءُ سلاحُ المؤمنِ ، فإذا أردتَ أن تكونَ أقوى الناس فادعُ القويَّ تكنْ قويًّا .

٥ ـ الاعتزاز بالله قوة

رُستم قائدُ فارس ، وتحت يديه مئتان وثمانون ألفًا من الجنودِ . يقولُ لسعدِ بنِ أبي وقّاصٍ القائدِ المسلمِ : « أرسلْ إليَّ مِن جنودِك رسولاً أكلِّمُه ، فأرسلَ له سعدٌ ـ رضي الله عنه ـ رِبعيَّ بنَ عامرٍ ، وعمرُه ثلاثون سنةً ، من فقراءِ الصحابةِ ، قال سعد : اذهبْ ، ولا تغيِّرْ مِن مظهرك شيئًا ، لأننا قومٌ أعزَّنا اللهُ بالإسلامِ ، ومهما ابتغينا العزّةَ بغيرِه أذلَّنا اللهُ ، فخرج ربعيٌّ بفرسِه الهزيلِ ، وثيابِه الرَّثّةِ ، ورمحِه البسيطِ ، فلما سمعَ رستم أنّ وافدَ المسلمين سوفَ يدخلُ عليه جمعَ حوْلَه الأُسرةَ الحاكمةَ ، والوزراءَ ، والجنودَ ، واستعدُّوا ليُرهِبوا هذا الوافدَ ، لعلّه يتلعثمُ ، فلا يستطيع الكلامَ ، فلما جلسَ رستم قال : أَدخِلوه عليَّ ، فدخل يقودُ فرسَه ، واعتمدَ برمحه على بُسُطِهم ؛ ليُظهِر لهم أن الدنيا حقيرةٌ ، وأنها رخيصةٌ ، وأنها لا تساوي عند الله شيئًا ، ومِن علاماتِ رُخصِها وحقارتِها أنْ أعطاهم إيّاها ، وجعل سعدَ بن أبي وقاص ينامُ على الثرى ، فلما وقفَ أمامَه قالوا : اجلسْ ، قال ربعيٌّ : ما أتيتك ضيفًا ، وإنما أتيتك وافدًا ، فقال رستم : ـ والترجمان بينهما ـ ما لكم أيّها العربُ ، ما علمنا

ـ وأقسمَ بآلهته ـ قوماً أذلَّ ولا أقلَّ منكم ، أنتم أهلُ جِعلانٍ[1] ، تطاردون الإبلَ في الصحراءِ ، فما الذي أتى بكم ؟

قال ربعيٌّ : نَعم أيها الملِكُ ، كنا كما قلتَ وزيادةً ، كنا أهلَ جهالةٍ ، نعبدُ الأصنامَ ، يقتلُ القريبُ قريبَه على شاةٍ ، ولكنّ اللهَ ابتعثنا لنُخرِجَ العبادَ مِن عبادةِ العبادِ إلى عبادةِ ربِّ العبادِ ، ومن ضيقِ الدنيا إلى سَعَةِ الآخرةِ ، وللقصة تتمة .

اجعل لربك كل عزك يستقيم ويثبت فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

٦ ـ الإصرارُ قوّةٌ

قال أحدُ الفلاسفةِ : إنّ القرارَ الذي يتّخذُه الإنسانُ في شأن مصيرِه قلَّما تنقضُه الأيامُ ، إنْ كان صادراً حقًّا عن إرادةٍ وإيمانٍ .

روى لي عالِمٌ جليلٌ : أنه كان في صعيدِ مصرَ إنسانٌ أمِّيٌّ في الخامسةِ والخمسين من عمرِه ؛ لا يعرفُ السماءَ من الأرضِ ، ولا الطولَ من العَرْض ، وقد ذهب ابنُه الشابُّ إلى الأزهرِ في القاهرةِ ، وبعد سنواتٍ عدّةٍ عاد ابنُه إلى قريتِه خطيباً لمسجدِها ، جلس أبوه في المسجدِ يستمعُ

(١) قال ابن منظور في اللسان (جعل) : « والـجُعَل : دابة سوداء من دوابّ الأَرض ، قيل : هو أَبو جَعْران ، بفتح الجيم ، وجمعه جِعْلانٌ ، وقد جَعِلَ الماءُ ، بالكسر ، جَعَلاً ، أَي : كثر فيه الجِعْلاَنُ ، وماء جَعِلٌ ومُجْعِلٌ : ماتت فيه الجِعْلان والخَنَافس ، وتَهافتت فيه ، وأَرض مُجْعِلة : كثيرة الجِعْلان ، وفي الحديث : كما يُدَهْدِهُ الجُعَلُ بأَنفه ؛ هو حيوان معروف كالخُنْفُساء » .

إلى خطبةِ ابنِه ، وبدلَ أن يمتلىءَ قلبُه فرحاً بما وصلَ إليه ابنُه مِن علمٍ ودعوةٍ ، امتلأ قلبُه حزناً وحسرةً على عمرِه الذي أمضاه في الجهلِ والغفلةِ ، واتّخذَ قراراً مصيريًّا ، وركبَ حمارته[1] متّجهاً بها من صعيدِ مصرَ إلى القاهرةِ ، واستغرقت الرحلةُ عشراتِ الأيامِ ، ولمّا وصلَ إلى القاهرةِ. . . سأل : أين الأزعر ؟ فقيل له : أيّ أزعر ؟ إنه الأزهرُ ، فالتحقَ به ، وتعلّم القراءةَ والكتابةَ ، ثم قرأ القرآنَ ، ثم طلب العلمَ. . . ومازال يطلبُ العلمَ حتّى انتهى به طلبُ العلمِ إلى أن يكونَ شيخَ الأزهرِ ، وما مات إلا وهو شيخُ الأزهرِ ، وهو أعلى منصبٍ دينيٍّ في مصرَ ، وشيخُ الأزهرِ في مصرَ بمرتبةِ رئيسٍ للوزراء .

٧ ـ الجمال قوة

المرأةُ ـ في الأصلِ ـ جميلةٌ ، ومحبَّبةٌ إلى زوجِها ، وجمالُها قوّةٌ كبيرةٌ ، لا تحتاجُ إلى دليلٍ ، ولا إلى شرحٍ طويلٍ ، ولكنها قوّةٌ حياديةٌ ، يمكن أنْ تُوَظَّفَ في الخيرِ ، كما يمكنُ أنْ تُوَظَّفَ في الشرِّ ، فيمكنُ بجمالِها أن تكونَ أداةَ إغواءٍ ، وإفسادٍ ، وانحلالٍ ، كما يمكنُ بجمالِها أن تكونَ أداةَ ترويضٍ ، وإصلاحٍ ، واكتمالٍ .

وقد أدركَ الغربيُّون هذه الحقيقةَ ، فكانوا يجبروننَا بالقوةِ المسلّحةِ على أن نفعلَ ما يريدون ، لكنهم الآن ـ مِن خلالِ البثِّ الفضائيِّ ـ

(١) قال ابن منظور (أتن) : « الحمارُ يقع على الذكر والأُنثى ، والأَتانُ ، والحِمارةُ الأُنثى خاصة » ، وقال الرازي في مختار الصحاح (حمر) : « وربما قالوا للأتان : حِمَارةٌ » .

يجبروننا بالقوةِ الناعمةِ أن نريدَ ما يريدون ، وقالوا : وراءَ كلِّ رجلٍ عظيمٍ امرأةٌ ، وأحياناً : لولاها لكان رجلاً عظيماً ، إنها قوّةٌ في الخيرِ إذا استقامت ، وقوّةٌ في الشرّ إذا انحرفت .

قال الرافعيّ : « إن خيرَ النساءِ مَن تضيفُ إلى جمالها جمالَ أخلاقِها ، ويكونُ عقلُها جمالاً ثالثاً ، فهذه المرأةُ إن أصابت الرجلَ الكفءَ يسّرتْ عليه، ثم يسّرتْ عليه ، ثم يسّرتْ عليه ، إذ تعدّ نفسَها إنساناً يريدُ إنساناً ، ولا تعرض نفسَها متاعاً يريد شارياً » .

٨ ـ العفّةُ قوّةٌ

نبيٌّ كريمٌ بن كريمٍ بن كريمٍ ، يوسفُ عليه السلامُ ، كان طفلاً أثيراً عند أبيه سيدِنا يعقوبَ ، ائتمر إخوتُه عليه ، وجعلوه في غيابةِ الجُبِّ ليتخلصوا منه ـ والقصةُ معروفةٌ ـ ومرّتْ بالبئرِ قافلةٌ ، واستخرجته من البئرِ ، وباعته بثمنٍ بخسٍ ، وانتهى به البيعُ ليكونَ عبداً في قصرِ عزيزِ مصرَ ، وكان آيةً في الجمالِ ، فدعته امرأةُ العزيزِ إلى نفسِها ، فاستعصمَ ، وقال :

﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ ﴾ [يوسف : ٢٣] .

وانتهى به الأمرُ إلى أنْ صار أقوى رجلٍ في مصرَ ، صار عزيزَ مصرَ ، قال تعالى :

﴿ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [يوسف : ٩٠] .

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾

[يوسف : ٢٤]

٩ ـ التسبيحُ قوّةٌ

التسبيحُ قوّةٌ وسبيلٌ إلى الفَرَجِ من دونِ حاجةٍ إلى وسائطَ بشريةٍ تتقوّى بها لتعينَك على قضاءِ حوائجك ، يقول الله تعالى عن يونس في أثر قوّة التسبيح :

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾

[الصافات : ١٤٣ـ١٤٤]

١٠ ـ الاستغفارُ قوّةٌ

قال تعالى :

﴿ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾ [نوح : ١٠ـ١٢] .

وفي حديث ابن عباس : « مَنْ أَكْثَرَ الاسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللهُ لَهُ مِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجاً ، وَمِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجاً ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ »(١) .

١١ ـ التّقوى قوّةٌ

قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٢ـ٣] .

---

(١) الحاكم في المستدرك (٧٦٧٧) ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

١٢ ـ الاستقامةُ قوّةٌ

قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ـ٣٢] .

يقول جلّ جلاله : ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

ومجمل القول :

الشرفُ كلّ الشرفِ ليس في الدُّورِ ، ولا القصورِ ، ولا في الأموالِ ، ولا في الأولادِ ، ولا في الهيئاتِ ، ولا في الذّواتِ ، الشرفُ أن تكونَ عبدًا لربّ الأرضِ والسماواتِ ، الشرفُ أن تكونَ مِن أولياءِ اللهِ ، الذين يعملون الصالحاتِ ، ويجتنبون المحرّماتِ .

* * *

١٣ ـ الإيمانُ قوّةٌ مطلقةٌ

ماشطةُ بنت فرعونَ ، هي تلك المرأةُ الصالحةُ ، التي كانت تعيش هي وزوُجها في ظلِّ مُلْكِ فرعونَ ، زوجُها مقرَّبٌ من فرعونَ . . وهى خادمةٌ ومربيّةٌ لبناتِ فرعونَ ، فمنَّ اللهُ عليهما بالإيمانِ . . . وعلِمَ فرعونُ بإيمانِ زوجِها فقتَلَه ، فلم تزَلِ الزوجةُ تعملُ في بيتِ فرعونَ تمشطُ شَعرَ بناتِه ، وتنفقُ على أولادِها الخمسةِ ، وفي يومٍ وهي تمشطُ شَعرَ ابنةِ فرعونَ وقع

المشطُ من يدِها فقالت : بسمِ الله ، فقالت ابنةُ فرعونَ : الله . . . أبي ؟ فصاحت الماشطةُ بابنةِ فرعونَ : كلاّ . . بل اللهُ ربّي وربُّك وربُّ أبيك ، فتعجبت البنتُ أنْ تعبدَ ماشطُتها غيرَ أبيها ، فأخبرته ، فعجبَ فرعونُ أنْ يوجَدَ في قصره مَن يعبد غيرَه ، فدعا بها ، وقال لها : من ربُّكِ ؟ فقالت : ربّي وربّك الله ، فاشتعلَ غيظاً ، وأمرَ بقِدْرٍ مِن نحاسٍ مملوءٍ بالزيتِ المغليِّ ، وأوقفَها أمامَ القِدْرِ ، فلمّا رأتِ العذابَ أيقنتْ إنما هي نفسٌ واحدةٌ تخرجُ ، وتلقَى اللهَ تعالى ، وعلِمَ فرعونُ أنّ أَحبَّ الناسِ إليها أولادُها الخمسةُ الأيتامُ الذين تكدحُ لهم وتطعمُهم ، فأرادَ أن يزيدَ عذابَها فأمرَ بإحضارِ أطفالِها الخمسةِ ، فلما رأوا أمَّهم تعلّقوا بها يبكون ، فانكبّتْ عليهم تقبِّلُهم وتبكي ، وأخذتْ أصغرَهم ، وضمّتْه إلى صدرها ، وألقَمَتْه ثديها ، فلما رأى فرعونُ المنظرَ سألَ أمَّهم : ألكِ ربٌّ غيري ؟ قالت : اللهُ ربِّي وربُّك ، فأمر برميِ أكبرِهم في القِدْرِ ، فجَرَّه الجنودُ ، ودفعوه إلى الزيتِ المغليِّ ، والغلامُ يصيحُ بأمِّه ويستغيثُ ، ويسترحمُ الجنودَ ، ويتوسّلُ إلى فرعونَ ، ويحاول الفكاكَ والهربَ ، وينادي إخوتَه الصغارَ ، ويضربُ الجنودَ بيديه الصغيرتين ، وهم يصفعونه ويدفعونه ، وأمُّه تنظرُ إليه وتودِّعُه ، فما هي إلا لحظات حتى أُلقِيَ الصغيرُ في الزيتِ المغليِّ ، والأمُّ تبكي ، وإخوتُه يغطُّون أعينَهم بأيديهم الصغيرة ، حتى ذابَ لحمُه من على جسدِه النحيلِ ، وطَفَتْ عظامُه البيضاءُ فوق الزيتِ ، فنظر إليها فرعونُ ، وقال لها : ألكِ ربٌّ غيري ؟ قالت : اللهُ ربِّي وربُّك ، وأمَرها بالكفرِ ، فَأَبَتْ عليه ذلك ، فغضبَ فرعونُ ، وأمرَ بولدِها الثاني ، فسُحِب من عند أمِّه ، وهو يبكي ، ويستغيث ، وأُلقِي في

القِدر ، فما هي إلا لحظات حتى طفت عظامُه البيضاء ، واختلطت بعظام أخيه ، والأمُّ ثابتةٌ على دِينها ، موقنةٌ بلقاء ربِّها ، ثم قال لها : ألكِ ربٌّ غيري ؟ قالت : اللهُ ربّي وربُّك ، ثم أمرَ فرعونُ بالولدِ الثالثِ فسُحِبَ ، وفُعِلَ به ما فُعِلَ بأخويه ، والأمُّ ثابتةٌ على دِينها ، فأمر فرعونُ أن يُطرَحَ الرابعُ في الزيتِ ، فأقبلَ الجنودُ إليه ، وكان صغيراً يتعلَّق بثوبِ أمِّه ، فلما جذبَه الجنودُ بكى ، وانطرح على قدَمَيْ أمّه ، ودموعُه تجري على رِجليها ، فحاولت أن تحملَه لتودِّعَه ، وتقبِّلَه قبل أن يفارقِها ، فحال الجنودُ بينه وبينها ، وحملوه مِن يديه الصغيرتين ، وهو يبكي ، ويستغيثُ ، ويتوسّلُ بكلماتٍ غيرِ مفهومةٍ ، وهم لا يرحمونه ، وما هي إلاّ لحظاتٌ حتى غرقَ في الزيتِ المغليّ ، وغابَ الجسدُ ، وانقطعُ الصوتُ ، وعَلَتْ عظامُه الصغيرةُ البيضاءُ فوق الزيتِ ، والأمُّ تنظرُ إلى عظامِه ، وقد رحل عنها إلى دارٍ أخرى ، وهي تبكي لفراقِه ، إذ طالما ضمّته إلى صدرِها ، وأرضعته مِن ثديها ، وطالما سَهرت لسهره ، وبكت لبكائه ، بقي الرضيعُ الذي يلتقم ثديَها . . . فجاهدت الأمُّ نفسَها أن تتجلَّدَ ، وتتماسك ، وهنا سألها فرعونُ : ألكِ ربٌّ غيري ؟ فسكتت ، وتضعضعت . . . وهنا حدثت المعجزةُ التي أخبر عنها رسولُ الله ﷺ : لقد أنطقَ اللهُ هذا الرضيعَ ، فقال : اثبتي يا أمّي . . . أنتِ على الحقِّ . . . فقالت الأمُّ لفرعونَ : اللهُ ربّي وربُّك ، فأمر فرعونُ الجنودَ فانطلقوا إليها ، وتدافعوا نحوها ، وانتزعوا الخامسَ الرضيعَ من بين يديها ، وكان قد التقمَ ثديها ، فلما انتزع منها ، صرخ الصغيرُ ، وبكت المسكينةُ ، وألقى في الزيتِ ، وفي فمه بقايا من حليبها ، وفي يدِه شعرة من شَعرِها ،

وعلى ثيابِه بقيةٌ من دَمعِها ، وذهب الأولادُ الخمسةُ ، وعن قريبٍ ستكونُ معهم ، ولم يبقَ إلاّ هي ، فأقبلوا إليها كالكلابِ الضاريةِ ، ودفعوها إلى القِدْرِ ، فلما حملوها ليقذفوها في الزيتِ نظرتْ إلى فرعونَ ، وقالت له : اجعل عظامي وعظامَ أولادي في قبرٍ واحدٍ[١] .

كانت هذه الماشطةُ تستطيعُ أنْ تحُول بينها وبين هذا العذابِ بكلمةِ كفرٍ تُسمِعُها فرعونَ ، لكنها علمت أنّ ما عندَ الله خيرٌ وأبقى ، فلله دَرُّ هذه الماشطةِ.. فما أقوى إيمانَها! وما أعظم ثباتَها! وحينما لا يملكُ الإنسانُ سلاحاً يحمي به نفسَه ، أو يواجهُ به عدوَّه ، ويثبتُ على مبدئه ، ولا يتضعضعُ أمام الطغيانِ ، يكون قد انتصرَ انتصاراً مبدئياً ، يقطفُ ثمارَه في اليومِ الآخرِ .

ولقد رأى النبيُّ ﷺ ليلةَ الإسراءِ شيئاً مِن نعيمِها فحدث أصحابه به وقال : « لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ بِرَائِحَةٍ طَيِّبَةٍ ، فَقُلْتُ : مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ يَا جِبْرِيلُ ؟ فَقَالَ لِي : هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ بِنتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلاَدِهَا »[٢] .

وعند البخاري أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « لَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَطْلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ لأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا ـ أي ما بين المشرق والمغرب ـ وَلَمَلأَتْهُ رِيحاً ، وَلَنَصِيفُهَا ، يَعنِي خِمَارَهَا ، عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا »[٣] .

---

(١) انظر القصة بألفاظها في مسند أحمد (٢٨٢٢) ، وصحيح ابن حبان (٢٩٠٣) ، فتح الباري (٦/ ٤٨٠) عن ابن عباس .

(٢) مسند أحمد (٢٨٢٢) ، وصحيح ابن حبان (٢٩٠٣) ، الطبراني في المعجم الكبير (١٢٢٧٩) عن ابن عباس .

(٣) البخاري (٢٦٤٣) ، الترمذي (١٦٥١) ، أحمد (١٢٥١٤) عن أنس .

ولنا أن نستنبطَ من هذه القصةِ الشيءَ الكثيرَ ، ولنا أن نأخذَ منها إسقاطاتٍ كثيرةً على واقعِ العربِ والمسلمين ، فالفراعنة الذين تآمروا على الأمة العربية والإسلامية كثيرون ، وهم في كل عصر ومصر ، فمعركة الحقِّ والباطلِ أزليةٌ أبديّةٌ ، ولعل في هذه القصة مواساةً لمن يُقتل مقهوراً ثابتاً على مبدئه ، متمسكاً بقيمه .

قال تعالى :

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٩] .

﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس : ٩٠] .

﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [غافر : ٤٥ـ٤٦] .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾ [القصص : ٤ـ٥] .

● هذه قصة الطغاة في الأرض .

* * *